أصبحت أكرهها كره السمّ والبرص. فما عرفت كلمة تعني الأسود والأبيض معاً، والحرية والعبودية، والسلم والحرب، وتستر أشنع وجوه الظلم بأبهج مساحيق العدل كهذه الكلمة. فلا عجب أن تكون مصدر أكبر بلبلة عرفها الإنسان حتى اليوم. ثمّ لا عجب أن تكون العتلة الأولى والأضخم في تقويض مدنيتنا. فالديموقراطية، حتى في أجمل مظاهرها، ما عدت كونها نوعاً من حكم الإنسان للإنسان. ومتى كان حكم الإنسان للإنسان مبعثاً للحرية والبحبوحة والسلام؟ إنّه كان وما برح العامل الأقوى والأهمّ في ثورة الإنسان على الإنسان وكره الإنسان للإنسان. فنحن قد نستسلم عن كره أو عن طواعية لسلطان الطبيعية فينا. أمّا أن نقبل سلطان إنسان نظيرنا غير مكرهين، فأمر ينافي الرغبة الباطنية فينا. وأعني رغبة التحرّر من كلّ قيد وحدّ.

والتحرّر من كل قيد وحدّ لا يكون بأيّ نوع من الحكم أو الفوضى. ولا بأيّ نوع من المدنيات نشيدها ثمّ نهدمها. ولا بالذعر والصخب والضجيج والجنون.

لعلّنا متى انهارت مدنيتنا نتعلّم، أو يتعلّم الآتون بعدنا، ما لم يتعلّمه الذين بنوا برج بابل والأبراج التي قامت ثمّ زالت من بعده. وهو أن الحرية لا تكون إلّا بالمعرفة.